



يقول الله تعالى: {قَالَ كُمْ لَيَتُّمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدٌ سِنِينَ . قَالُوا لَيَتُّنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ . قَالَ إِنَّ لَيَتُّمْ إِلَّا فَلِيَلَا} [أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْدًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ] [المؤمنون:112-115]. ما أحوج الإنسان إلى التأمل والتفكير في ملكوت السموات والأرض، وما بث الله فيها من آيات ربوبيته ووحدانيته وبديع صنعه، وهو الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا {صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ] [النمل من الآية:88]، ومن عجائب الخلق، وبديع صنعه؛ هذا الزمن الذي تنطق به حركات الكون كله في دوران الأجرام السماوية في أفلاكها، وفي تعاقب الليل والنهار، وتتابع الفصول، بل حتى في دقات قلب الإنسان كعداد ينطق بقيمة الوقت، ويحصي لحظات عمره بطريقة العد العكسي:

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ *** إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثوانٌ

إن الوقت من نعم الله العظيمة، يتكرم فيه المولى سبحانه على العباد بفرص العمر الغالية، لعلهم يغتنمون الحياة الدنيا الفانية من أجل الفوز بنعيم الحياة الأخرى الباقية، فالعمر أوقات، أيام، وشهور، وسنوات، والوقت أثمن من الذهب والمال، لأن المال قد يعوض أو يستعاد، لكن الوقت من حيث يمضي لا يعود، إنه وعاء العمر والحياة، من اغتنمه فقد اغتنم عمره وحياته، ومن أضاعه خسر الدنيا والآخرة يقول الحسن البصري رحمه الله: "أيها الإنسان! إنما أنت أيام، كلما ذهب يومك ذهب ببعضك"، وبليسان الشاعر:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا رَاكِبٌ ظَهَرَ عُمُرُهُ *** عَلَى سَفَرٍ يُفْنِيهِ بِالْيَوْمِ وَالشَّهْرِ
بِيَتٍ وَيَضْحِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةً *** بَعِيدًا عَنِ الدُّنْيَا قَرِيبًا إِلَى الْقَبْرِ

وفي غفلة من الناس، وهم بالآمال متعلدون، وعلى حين غرة؛ يأتيهم الأجل المحتموم، وحينها يتتبهون من غفلتهم، ليدركوا قيمة أوقات الأعمار الضائعة، ويستجدون الفرص الإضافية لهم يتداركون، لكن هيهات لما يأملون، فالجواب القرآني جاهز وصارم: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} [وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] [المنافقون:11]، وقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ

المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ‏ كَلَّا ‏ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَاتِلُهَا ‏ وَمِنْ وَرَائِهِمْ يَرْزَخُ إِلَى يَوْمٍ يُعْثُونَ {

[المؤمنون:99-100]، وتزداد الحسراة والندامة يوم القيامة، وقد أزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الحجيم للغاوين، هنالك يدعوا المضيعون لأوقات أعمارهم الدنيوية بالويل والثبور، وهو في النار يصطرون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ ‏ أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ‏ فَذُوقُوا فَمَا لِظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [فاطر من الآية:37]، أما أهل الجنة فليسوا يتأسفون، وهو في النعيم المقيم، إلا على ساعة من الدنيا لم يكونوا لله تعالى فيها من الذاكرين. إن العمر مهما امتد وطال ليس إلا لحظات زمنية عابرة، ولكنها فرص ثمينة، قد أفلح من اغتنمها وهو حازم عاقل، وقد خاب من أضاعها وهو واهم غافل، يذكر في باب الموعظة أن: "جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا أَطْوَلَ النَّبِيَّينَ عُمْرًا كَيْفَ وَجَدْتَ الدُّنْيَا وَلَذَّتْهَا؟ قَالَ: كَرَجْلٍ دَخَلَ بَيْتَنَا لَهُ بَيَانٌ، فَقَامَ فِي وَسْطِ الْبَيْتِ هُنَيَّةً، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ" (ابن أبي الدنيا؛ الرهد؛ رقم[358] :). إن الوقت في حياة المسلم أغلى وأثمن، لما يعلم من قيمته في دينه ودنياه، وقد اهتم به الإسلام، وأولاده عناء كبيرة، حسبكم أن الله تعالى أقسم في كثير من الآيات بظواهره المختلفة تنبئها إلى عظيم شأنه: {وَالشَّمْسِ وَضُحَّاهَا} [الشمس:1]، {وَاللَّيلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل:1]، {وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٌ} [الفجر:1-2]، {وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر:1-2]، {وَالضُّحَّى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى:1-2]، بل ربط الإسلام كثيراً من العبادات والقربات بأوقات زمنية مخصوصة في الصلاة والزكاة، والصوم والحج، والنواوف والأذكار وغيرها. والمسلم يعلم أنه لن يدرك الجنة إلا بحسن استثمار فرص العمر بكل أوقاته وأحواله فيما يرضي ربه، لأنه عن كل ذلك سوف يسأل، كذلك يخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَرْزُولُ قَدَمًا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ» (جامع الترمذى، عن أبي بربعة الأسلمى؛ برقم[2417] :). إنه من السفة والغفلة إتلاف الوقت وتبيديه، فذلك أشد وأوخر من إتلاف المال وتبيديه، وكل وقت ضائع هو خسارة لجانب من مطالب الدين والدنيا والآخرة. ومن المؤسف المؤلم أن تجد المسلم أكثراً إهمالاً وتبيدياً لأوقات عمره الثمينة، وهو على علم ويقين بما ينتظره ليوم القيامة، تلك حال كثير من المسلمين الذين يبيدون الساعات الطوال في المقاهي والملاهي، وألوان الفرجة في الأفلام والمباريات والسهورات، وحول موائد الورق والشطرنج وغيرها.. لا هين عن ذكر الله، وعن الصلاة، متقاعسين عن صالح الأعمال للدنيا والآخرة، وإذا كان لا مانع من قسط الترفيه والترويح بالضرورة فهو في غير إفراط ولا تفريط (وهذا موضوع آخر)، لكن المسلم العاقل الحازم الذي يتوقف إلى رضا الله ورضوانه؛ يعلم أن طريق ذلك جد وعمل، واجتهاد ومثابرة، واغتنام الأوقات بما يرضي الله تعالى من الصالحات، و فعل الخيرات، فيبادر ويسارع قبل انصرام العمر، وحلول الأجل، عاملأً بأمر الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَقْنِينَ} [آل عمران:133]، ومدركاً أن الدنيا مزرعة الآخرة:

لَا دَارَ لِلْمَرءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا *** إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيهَا

فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكُنُهَا *** وَإِنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا

ومن النعم العظيمة التي يغفل عنها الغافلون: نعمة الصحة والفراغ، يجهلون قدرها، ولا يؤدون شكرها، وهي فرص الأوقات التي تخلو من المشاغل والمعوقات المانعة من العمل للدين والدنيا والآخرة كما في الحديث النبوى الصحيح: «عِنْمَاتٍ مَغْبُونُ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ» (صحى البخارى؛ برقم[6412] :). والغبن في التجارة خسران يبعث على الحسراة والندم، لكنه مع ضياع فرص العمر الزمنية أشد حسراة وألمًا، فماذا ينتظر من آتاه الله الصحة والعافية، والفرص الزمنية المواتية، بغير شاغل ولا مانع، كي يغتنم ذلك في جด العبادة والعلم، والعمل وفعل الخيرات، وما أكثر النادمين الذين يعيشون على الحسراة لما ضاع منهم زمن القدرة والاستطاعة، وقد أصبحوا عاجزين مقعدين بالمرض أو الشيخوخة أو

فِيَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا *** فَأُخْبِرْهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

إن الفراغ لا يبقى فراغاً أبداً، فلابد أن يملأ بخير أو شر، ومن لم يشغل نفسه بالحق شغلته بالباطل، وقد كان السلف الصالح يكرهون للمرء أن يكون فارغاً، لا هو في أمر دينه، ولا في أمر دنياه، وبذلك تنقلب نعمة الوقت والفراغ نعمة وندماً على كل حامل مصياع، وما أشد خطر الفراغ، والشباب، والمال وعواقبها على عابدي الأهواء والشهوات {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَأْعُبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} [الزخرف:83]:

إن الشباب والفراغ والجدة *** مفسدة للمرء أي مفسدة

إن المسلم العاقل العامل يغتنم فرصة، ويتحرك بجد وحزم وعزم لملء أوقات عمره بالطاعات، والقربات، و فعل الخيرات، ويسارع إلى مغفرة من ربه وجنات النعيم، كما هو مأمور في كتاب الله، وسنة رسوله، وهذا تحضيض من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل حلول الموانع، والمعوقات، والفتنه: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْظِرُونَ إِلَىٰ فَقْرٍ مُّنْسٍ، أَوْ غَنِيٍّ مُطْغٍ، أَوْ مَرَضٍ مُفْسِدٍ، أَوْ هَرَمٍ مُفْنِدٍ، أَوْ مَوْتٍ مُجْهِزٍ، أَوْ الدَّجَالِ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةِ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُ» (جامع الترمذ عن أبي هريرة؛ برقم[2492] :). إن استغلال الأوقات يتطلب التخطيط والتنظيم، ومراعاة أنساب الأعمال لأنسب الأوقات، فليست كل الأعمال صالحة لكل زمان. قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما لما استخلفه: "واعلم أن لله عملاً بالنهر لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهر". ومن الآفات القاتلة للأوقات، المانعة من حسن تدبيرها واستغلالها: الغفلة التي تغشى العقول والقلوب والعزائم: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف من الآية:28]. والتسويف، وهو مرض التأجيل، وترك المبادرة والتعجيل، وفي الحكمة المشهورة: "أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً". وطول الأمل بغير عمل {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَّتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلَ ﴿٤﴾ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر:3]. وتبرير التفاسع والكسل، وسب الدهر والزمان، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك: «لَا تَسْبُبُوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» (صحيف مسلم؛ برقم: [2246]). وفي مثل صيني: "أن تشعل شمعة خير من أن تسب الظلم". ويقول ابن القيم رحمه الله: "السنة شجرة، والشهرور فروعها، والأيام أغصانها، وال ساعات أوراقها، والأنفاس ثمارها، فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت أنفاسه في معصية فثمرته حنظل". نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وسنة نبيه الكريم، وأجارنا من عذابه المهين.. آمين الخطبة الثانية: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمَكَ، وَصِحَّاتَكَ قَبْلَ سَقَمَكَ، وَغِنَائِكَ قَبْلَ فَقْرَكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحِيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ» (المستدرك؛ برقم: [7941]). توجيه حكيم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اغتنام النعم الربانية الخمس، وهي فرص ثمينة في حياة المسلم الحرير على التزود من دنياه لآخرته: نعمة الشباب، وهو فرصة القوة والحيوية، وطوبى لشاب نشأ في عبادة الله. ونعمة الصحة والعافية، وهي فرصة القدرة والاستطاعة من أجل العمل قبل عوامل العجز. ونعمة الغنى وهو فرصة القدرات المادية لفعل الخيرات. ونعمة الفراغ وهو فرصة الزمن المتاح للعمل قبل المشاغل والفتنه. ونعمة الحياة، وهي الفرصة الكبرى في دار الدنيا قبل الرحيل إلى الآخرة، فطوبى لمن تزود منها بخير الزاد {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ} [البقرة من الآية:197]. نعم عظيمة، وفرص مواتية، وثروة زمنية غالبة، جدير بكل عاقل أن يستثمرها بحسن التفكير والتدبیر، والطريق إلى ذلك أربعة أمور: أولها: تنظيم الوقت بحسن التخطيط والبرمجة. وثانيها: تحديد الأهداف بدقة حتى لا تستهلك الأوقات هباء. وثالثها: تحديد الأولويات حتى لا تضيع الأوقات الثمينة في الأمور الثانوية. ورابعها: المراقبة والمحاسبة بشكل دقيق لما يصرف من الأوقات اليومية. فيا أيها الإخوة المؤمنون:

اغتنموا فرص أعماركم، واملأوا أوقاتكم بما فيه خير دينكم ودنياكم، واحذروا آفات التبذير للأوقات، وتدكروا أن الدنيا مزرعة للآخرة، وليس بعدها من دار إلا الجنة أو النار، واذكروا قول الله تعالى: {فَمَنْ مِنْ طَغَىٰ . وَآتَهُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . وَمَمْا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسُ عَنِ الْهُوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} [النازعات:37-41].

المصادر:

طريق الإسلام